

الفصل الثاني

رواية الشعر

رواية الشعر - عوامل تدرس الأصمعي به - ملاحظه
الدقيقة في النقد - رواية الدواوين - منهج الأصمعي
في الرواية .

الأصمعي من رواة اللغة والشعر ، ولقد تحدثنا عنه راوية للغة فكيف تسليح لرواية الشعر ؟
إذا عرضنا حياة الأصمعي في بدنها ، واختلافه إلى أبي عمرو بن العلاء يقرأ
القرآن - وجدنا أن أستاذه لم يكن قارئاً للقرآن فحسب ؛ وإنما كان من أئمة رجال اللغة
والشعر ، وكان له مجلس يعقد لروايتها إلى جانب مجلسه لإقراء القرآن ، وكان من الطبيعي أن
يأخذ الطالب طريق أستاذه ، فيهم إلى جانب قراءة القرآن برواية الشعر .
كان الأصمعي يسكن البصرة في حي بنى أصم ، وكان هذا الحي يتوسط سكة المريد
والمسجد الجامع فأينما توجه وجد بقيته : المريد وفيه يجتمع الشعراء والأعراب ، والمسجد وفيه
شيوخ اللغة والشعر .

ومن العوامل التي حفزت الأصمعي إلى رواية الشعر أنه كان في العراق ظاهرة عامة تتمثل
في عناية البيئات العلمية برواية الشعر بغية التعرف على صحيح اللفظ وصحيح معناه كما ورد
على ألسنة العرب بعد أن ظهر اللحن في الأمصار لتعدد الألسن وظهور العبارات الركيكة على
ألسنة الشعبيين .

ومن البواعث أيضاً تحقيق المجد الأدبي بعد أن لاحظ الأصمعي عناية الأمويين برواية الشعر
حين كانوا يرسلون إلى قتادة بن دعامة السدوسي يستفسرونه ؛ كما كانوا يرسلون في طلب حاد
الرواية يستوضحونه إذا غم عليهم البيت أو القصيدة ، ورأى الأصمعي مكانة المفضل الضبي
في بلاط العباسيين ، ربما سعى الأصمعي إلى تحقيق هذا المجد . وبدأ يلتمس الشعر ، فأعانتة
فطرة خالصة العروبة ، وحافظة لاقطة واعية .

فالأصمعي عرني خالص العروبة ، ولنا أن نضع في أول الاعتبارات عنصرته هذه التي أعانته على المضي في رواية الشعر ، وتذوقه لطعمه المختلفة ، ولنا أن نقول أيضا : إن اللغة التي تستخدم في قرص الشعر غير تلك التي تستخدم في الأحاديث العامة ، ومدار الأحيلة والأحاسيس يستند استناداً قوياً إلى تلك الفطرة التي لا يقف صاحبها عند حد الحفظ والمعرفة بالمعاني ، ولكنه يستخدم إلى جانب ذلك إحساسه للتعرف على المدلول الواسع للفظ والظلال التي تحيط بالمعاني ، فتخرجها من مدلولاتها الحقيقية المحدودة إلى مدلولات مجازية واسعة لا يكاد يدركها غير العرني القمح .

أما عن حافظته الواعية فلقد كان الأصمعي أحد الحفاظ المعدودين في التاريخ الأدبي . والأقوال التي تدور حول هذه الصفة تبلغ حد الأساطير والخرافات ، قال عن نفسه : ما بلغت الحلم حتى رويت اثني عشر ألف أرجوزة^(١) وقال عمر بن شبه : سمعت الأصمعي يقول : أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة^(٢) والخبر على هذه الصورة مدعاة للشك ؛ فليس في القصيد العرني كله هذا القدر من الأراجيز ، وإذا كانت هذه بضاعته من الرجز فكم من القصيد ولذلك جاز لنا أن نصرف النظر عن المدلول الحرفي للخبر إلى القصد في الإبانة عن سعة الحفظ ، ولكن نرى خبراً آخر أكثر غرابة يرويه أحمد بن بكير النحوي فيقول :

لما قصد الحسن بن سهل العراق قال : أحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب ، فحضر أبو عبيدة معمر بن المنفي ، والأصمعي ، ونصر بن علي الجهضمي ، وحضرت معهم ، فابتدأ الحسن ، فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس في حاجاتهم ، ووقع عليها ، فكانت خمسين ورقة ، ثم أمر فدفعت إلى الخازن ، ثم أقبل علينا فقال : قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية فنأخذ الآن فيما نحتاج إليه ، فأفصنا في ذكر الحفاظ فذكرنا الزهري ، وقتادة ، ومرنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها الأمير في ذكر ما مضى ، وإنما نعتمد في قولنا على حكاية عن قوم مضوا وترك ما نحضره ، ها هنا من يقول : إنه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج أن يعود فيه ، ولا دخل قلبه شيء فخرج منه .

فالتفت الأصمعي فقال : إنما يريدني في هذا اللفظ أيها الأمير ، والأمر في ذلك على ما

(١) العقد الفريد ٥ : ٣٠٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١١ ، انباه الرواة ٢ : ١٩٨ .

حكى ، وأنا أقرب عليه : قد نظر الأمير فيما نظرفيه من الرقاع وأنا أعيد ما فيها ، وما وقع به الأمير على رقعة رقعة على توالى الرقاع ، قال : فأمر الأمير فأحضر الخازن وأحضرت الرقاع ، وإذا الخازن قد شكَّها على توالى نظر الحسن فيها ، فقال الأصمعى : سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا ، والرقعة الثانية ، والثالثة حتى مر فى أربعين رقعة ونيف . فالتفت إليه نصر بن على فقال : أيها الرجل ، اتق على نفسك من العين فكف الأصمعى (٣) . وشواهد الحال تنبئ عن ذكاء الأصمعى ، وقوة ذاكرته ، وأنه كان يحفظ من الشعر أضعاف ما يحفظ أمثاله : قال أبو عبد الله بن الأعرابي وكأنه يشير إلى هذه الظاهرة : (شهدت الأصمعى وقد أنشد نحواً من مائتى بيت ما فيها بيت عرفناه) (٤) .

تمرسه بالشعر :

وبذاكرته هذه دخل زمرة المسجدين فأخذ ما عندهم ، ثم دخل بيئة المبرد وسمع شعراءها وأعربها ، ثم شد رحاله إلى البادية على النحو الذى ذكرناه فى الباب السابق ، فجمع كثيراً من المقطعات والأراجيز لأعراب يعرفهم بالعيان ، وأعرب يعرفهم بأسمائهم دون شيوخهم ، فكان يقول : سمعت فتى فى أرض كذا ، أو أعرابية فى طريق كذا ، وما ترك شيخاً أو راوية له بصيرة بشعر إلا حاول الإفادة منه حتى اتصل بخلف الأحمر ، وكان شيخ الرواة فى الشعر فتذاكرا القصائد والمقطعات وعرفا مذاهب الشعراء واتجاهاتهم وأساليبهم ، وعاشا فى أخيلتهم أيضاً ، فإذا ذكر البيت من الشعر فطنا إلى قائله أوردجا نسبته إليه ، وكثيراً ما كان الأصمعى يقول : هذا البيت ليس لفلان ، أو أشبه شعر فلان .

وكان من حق الأصمعى بعد هذا أن يتكلم فى النقد بالنسبة للشاعر وبالنسبة للشعر : كأن يقول : فلان جرمقافى لا يحسن أن يقول الشعر ، أو يقول : كان حسان فى الجاهلية أشعر منه فى الإسلام ؛ ويعلل ذلك بأن الشعر إذا دخل فى باب الخير لان (٥) أو يقول : فلان فحل .

(٣) نزعة الألبا ١٦٧ .

(٤) نزعة الألبا ١٥٣ .

(٥) كان الأصمعى يقول : طريق الشعر إذا أدخلته فى باب الخير لأن : ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا فى الجاهلية والإسلام فلما دخل شعره فى باب الخير من رأى النبى ﷺ وحمة وجعفر رضوان الله عليها لأن شعره ! الموشع . ٦٥ . ٦٢

وفلان ليس بفحل ، ولو أنه قال خمساً أو عشراً أو عمل كذا وكذا لكان فحلاً .
ولترسه بالشعر كان يرسم للشاعر منهاجاً ؛ ليصبح من الفحول ، فيقول فما يحكيه ابن
رشيقي عنه :

(لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع العروض ؛
ليكون ميزاناً له على قوله : والنحو ، ليصلح به لسانه ، وليقيم به إعرابه ؛ والنسب وأيام
الناس ، ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم)^(٦) .

ملاحظه الدقيقه في النقد :

والأصمعي أوسع من هذا معرفة عندما يتكلم عن الشعر ومجال النقد ؛ إذ كان أحسن
الرواة إحاطة بمعاني الشعر ، يعينه على ذلك حسه وذوقه من جهة ، وجمعه وتحصيله من جهة
أخرى ، وهو لا يكتفى بمجرد الحفظ والرواية ، ولكنه يجمع إلى ذلك المناسبة التي قيل فيها ،
وتمثله لروح قائله : أنشد أبو عبيدة قول حاجب بن زرارة :

شтан هذا والعناق والنوم والمشرّب البارد في ظل الدوم .

فأنكر عليه الأصمعي ذلك وقال : ما ابن الصباغ وهذا ؟ وأنى لأهل نجد دوم ، والدوم
شجر يكون بالحجاز ، وحاجب نجدى فأنى له دوم ؟ ، وكان الأصمعي ينشده الظل اللّوم أى
الدائم^(٧) .

وسأل الأصمعي طلابه عن معنى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر :
يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
فقالوا : معنى ذلك أنها تذكره صباح مساء . قال : لا ، ولكنها أرادت بقولها هذا أنها
كانت تذكر أخيها صخراً عند طلوع الشمس وقت الغارة أو الغزو ؛ لأنه كان من الفرسان ؛
وتذكره عند غروبها وقت القرى وإطعام الضيف ؛ لأنه كان من الأجواد ، فقاموا وقبلوا
يده^(٨) .

(٦) العمدة لابن رشيقي .

(٧) نزهة الألبا ، ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٨) المزمع ٢ : ٣٣٦ .

وذكروا قول امرئ القيس بن حجر :

لنا غنم نسوقها غزاراً كأن قرون جلتها العصي
فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شيع وري
قال الأصمعي : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطيئة^(٩) .

والأصمعي عندما يقطع بأن هذا ليس بكلام امرئ القيس ، وإنما هو أقرب إلى كلام الحطيئة - فلأنه كان يدرك الفرق بين الرجلين . فامرؤ القيس لا يرضيه من الدنيا إلا أن يكون ملكاً فكيف يكفيه شيع وري وهو القائل :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاي - ولم أطلب - قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي
وإذا استطعنا أن ننفي مع الأصمعي نسبة هذا الشعر إلى امرئ القيس معتمدين في ذلك على نص يناقضه من شعر هذا الشاعر - فإننا لا نستطيع معه بوسائلنا العلمية المادية المعروفة أن نلحقه بشعر الحطيئة بنفس الاطمئنان واليقين ، والفرق بيننا وبين الأصمعي في ذلك أنه لكثرة ممارسته للشعر قد وصل من الخبرة بطعومه المختلفة ومذاقاته المتعددة إلى أنه يسمع هذا البيت أو ذاك فيقول لأول وهلة : ليس هذا الشعر لفلان ، إنه أشبه بشعر فلان .

ولقد تلقى لمحات هذا النقد الدقيق القائم على المعرفة التامة بأجواء الحياة البدوية من أستاذه أبي عمرو بن العلاء ، وهو يشير إلى ذلك بقوله :

قرأت على أبي عمرو شعر النابغة الذبياني ، فلما بلغت إلى قوله :

مقدوفة بدخيـس النـحـض بازلها له صريف صريف القعو بالمسد
قال لي : ما أضر عليه في ناقتة ما وصف . فقلت : وكيف ؟ قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء والضجر ، كذا تكلمت العرب ، فرأى بسكوقي مستريداً فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن مقروم الضبي :

كنـاز البـضـيع جـالـية إذا ما بـغـمـن تراها كـتـوماً^(١٠)
وسمع الأصمعي قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جاريتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

(٩) الحيوان ٥ : ٤٩٥ بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(١٠) الموشح ٤٢ .

فأخذ عليه امتنانه لمحبوته أن جعلها تغدو وتروح بين بنات الحى ، شأنها فى ذلك شأن بنات السواد من الناس وأوساطهم : فهى كما يقول خراجة ولأجة . هلا قال كما قال الآخر :

وتكرمها جاراتها فيزرها وتعتل عن إتيانهن فتعذر^(١١)
والثانية بلا شك سيدة مهابة يسعى إليها ، ولا تسعى هى إلى الناس !
وظل رأى الأصمعى موضع إعجاب النقاد من بعده . ذكر صاحب الأغاني بسنده إلى المبرد قال : (قال لى صالح بن حسان : أنشدنى بيتاً خفراً فى امرأة خفرة شريفة . فقلنا قول حاتم :

يضيء لها البيت الظليل خصاصة إذا هى يوماً حاولت أن تبسماً
فقال : هذه من الأصنام ! أريد أحسن من هذا ، قلنا قول الأعشى :
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
فقال : هذه خراجة ولأجة كثيرة الاختلاف ! فقلنا بيت ذى الرمة :
تنوء بأخراها فلأياً قيامها وتمشى الهوينى من قريب فقير
فقال : هذا ليس ما أردت ؛ إنما وصف هذه بالسمن ونقل البدن .
فقال : ما عندنا شيء

فقال : قول أبى قيس بن الأسلت :
وتكرمها جاراتها فيزرها وتعتل عن إتيانهن فتعذر
وليس لها أن تسهين بجماعة ولكنها منهن تحيا وتخفر^(١٢)
ونراه وقد تصدى لطرفة يعيب عليه حواسه ووجدانه وأن شعره الذى فى صاحبه لا يعبر
تعبيراً صحيحاً عن صفة العاشق حيث يقول :

أصحوث اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر
أرق العين خيال لم يقر طاف والركب بصحراء يُسر
ثم قال :

وإذا تلسنى ألسنها إننى لست بموهون غمر !

(١١) المشرح ٥١ .

(١٢) الأغاني ١٥ : ١٥٩ ط التقدم .

لا كبير دالف من هرم أرهب الليل ولا كلّ الظفر^(١٣)

فيعجب الأصمعي لطرفة وهو يقول : إنه لم يتم ولم يهجع لفرط حبه لها ، ثم يتوعددها بعد ذلك ويتهددها ، ويشير إلى قوته وعنفه ، وأنه سوف يلسنها إذا ابتدرته !
وذكروا أمام الأصمعي قول الشاعر :

فما برحت في الناس حتى تبينت ثقيفاً بزياء الأساة قبائها
بمعنى : ما زالت هذه الخمرة في الناس حتى أتوا بها ثقيفاً . قال الأصمعي متعجباً : كيف تحمل الخمرة إلى ثقيف وعندهم العنب ؟^(١٤) .

وقال المازني : سمعت الأصمعي يقول : كان امرؤ القيس ينوح على أبيه حيث يقول :
رب رام سن بني ثعل مخرج زنديه من ستره
فقال (أى الأصمعي) : (فكفيه) إن كان لابد أصلح^(١٥) . يعنى : أن الإخفاء لا يتفق مع إخراج زنديه !

ووصف النابتة النعام بقوله :

مثل الإماء الغواذى تحمل الحزما

فقال الأصمعي : إنما توصف الإماء في هذا الموضع بالرواح لا بالغدو ؛ لأنهن يجئن بالخطب إذا رحن^(١٦) .

وعاب الأصمعي قول رؤبة :

يهوين شتى ويقعن وفقاً

لأن الجياد لا تقع حوافرها معاً ، وإذا وقعن وفقاً فكأنها تضرر ليست تسبح^(١٧) .
ووصف أبو ذؤيب فرسه بقوله :

قصر الصبوح لها فشرح لحمها بالى فهي تنوخ فيها الإصبع
تأبى بدرتها إذا ما استكرهت إلا الحميم فإنه يتبضع

(١٣) الموشع ٥٧ .

(١٤) كتاب الصناعين ٩٦ ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢ م .

(١٥) الموشع ٣٨ .

(١٦) الموشع ٤٤ .

(١٧) الموشع ٢١٩ .

فقال الأصمعي : هذه الفرس لا تساوي درهمين ! لأنه جعلها كثيرة اللحم رخوة .
تدخل فيها الإصبع ، وإنما يوصف بهذا شاء يضحى بها ، وجعلها حروناً إذا حركت قامت إلا
العرق فإنه يسيل^(١٨) .

وبدلنا هذا على أن الأصمعي كان على إحاطة بدقائق الشعر ولطائفه وملاحظه الخفية ،
وله تسميات نقدية بقيت إلى يومنا هذا ، يقول لمحدثه : أتعرف التفاتات جرير ؟ قال : فما
هي ؟ قال الأصمعي :

أنتسى إذ تودعنا سليمي بعود بشامة - سقى البشام
ألا تراه مقبلاً على شعره ، ثم التفت إلى البشام فدعا له ، وقوله :
طرب الحمام بذى الأراك فشاقي لازلت في علل وأيك ناضر
فالتفت إلى الحمام فدعا له^(١٩)

وقد بقي أسلوب الالتفات معروفاً بالاسم الذي أطلقه عليه الأصمعي ، ودخل به في أنواع
البيديع منذ ابن المعتز ، وإلى الآن حاملاً التعريف نفسه والأوصاف نفسها كما ذكرها
الأصمعي .

هذه بعض ملاحظه الدقيقة في النقد .

وبالإضافة إلى هذا الوعي العميق ، والمعرفة بالمعاني في إطار الحياة البدوية - فإن هناك
أقيسة ثابتة كان الأصمعي يلتزم بها ، منها : ترك الخيال على سجيته ، لينساب الشعر في جدول
طبيعي يعتدل أحياناً ويلتوى أحياناً بحسب مزاج صاحبه ، وليس الشعر لهؤلاء الذين يتعملون
في صنع القصيدة وتحديد أطرافها ، فكان يقول : (زهير بن أبي سلمى ، والحطيئة ،
وأشباهها عبيد الشعر) .

وكذلك كل من جود الشعر ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات
القصيدة كلها مستوية في الجودة . وكان يقال : لولا أن الشعر قد كان استعبدهم ، واستفرغ
مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب
الألفاظ - لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهواً رهواً ، وتشال عليهم الألفاظ
انثيالاً وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ، ورؤبة ، ولذلك قالوا في شعره : (مطرف

(١٨) كتاب الصناعتين ٥٨ ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢ .

(١٩) كتاب الصناعتين ٣٩٢ .

بآلاف ، وخمار بواف ! (٢٠) .

ومن هذه السجية يكون الابتكار والإبداع والخلق ، أما الصناعة فهي متأثرة بمناهج السلف ومعتمدة عليها : سئل الأصمعي عن بشار ومروان أيهما أشعر فقال : بشار ؛ فسئل عن السبب في هذا فقال : (لأن مروان سلك طريقاً أكثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يسلك ، وأحسن فيه ، وتفرد به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل) (٢١) ووصف بشار بن برد بأنه كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً (٢٢) .

وللأصمعي اختيارات ومقطعات يستحسنها لسهولة الطبع وعدم التكلف فهو يستحسن مثلاً قول نصيب :

فإن بك من لوني السواد فإني لكالمسك لا يروى من المسك ذائقه
وما ضر أنوابي سوادى وتحتها لباس من العلياء بيض بناائقه
إذا المرء لم يبدل من الود مثلاً بذلت له فاعلم بأنى مفارقه (٢٣)
وكان إذا سمعها قال : قاتل الله نصيباً ! ما أشعره !

وكذلك كان يستحسن قول أبي العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا حيك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ساعةً بحك فوه (٢٤)
وأنشد قول إسحق الموصلي : يذكر ولاه لخزيمة بن خازم :

إذا كانت الأحرار أصلى ومنصى ودافع ضيمي خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعداً غير قائم (٢٥)

فجعل الأصمعي يعجب من ذلك ويستحسنه .

وبهذه الكثرة الكثيرة من رواية الشعر ، وبهذا العلم الغزير في دقائقه - دخل ميدان الرواية

(٢٠) انظر البيان والتبيين ٢ : ١٣ بتحقيق عبد السلام هارون .

(٢١) الأغاني ٣ : ١٤٧ ط دار الكتب .

(٢٢) الأغاني ٣ : ١٤٩ .

(٢٣) الأغاني ١ : ٣٥٤ .

(٢٤) الأغاني ٤ : ١١ .

(٢٥) الأغاني ٥ : ٢٧٩ .

اللغوية ، فقبوا فيها مركز الصدارة ، وأصبح من فحول الرواة في البصرة ، بل فعلها في البصرة وفي غير البصرة !

رواية الدواوين :

أخذ الأصمعي عن أبي القاسم حماد بن سابور المعروف بالراوية ، كما أخذ عن خلف الأحمر ، وقد اشتهر حماد بمعرفته لأيام العرب وأخبارها وأنسابها وأشعارها ، وأنه هو الذي جمع السبع الطوال^(٢٦) ، ولكن الأصمعي لاحظ أنها يميلان إلى وضع القصائد ينسبانهما إلى شعراء العرب أو يصححان الأبيات بتغييرها ، فاتجه إلى مصادر أخرى في سبيل دراسته لمجاميع الشعر وأشعار القبائل ، وصار يقصد الثقات من الناس متفرقين : فالرياشي يحدث عن الأصمعي أنه كتب للحطيئة في ليلة أربعين قصيدة^(٢٧) ، وكان الأصمعي أحسن من روى شعر الهذليين ، وعقد لها المجالس الخاصة لروايتها ، ومع علمه ودرايته كان يتلقى في هذه المجالس رأى الأعراب فيها ، وفيما يروى منها ، قرئ عليه في شعر أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها

بالباء في كلمة الدبر بدلا من الباء ، فقال أعرابي حضر المجلس : ضل ضلالك أيها القارئ ! إنما هي ذات الدبر ، وهي ثنية عندنا ، فأخذ الأصمعي بقوله^(٢٨) .

وكان محمد بن إدريس الشافعي أحسن الناس معرفة بشعر الهذليين ، إذ بقي فيهم سبع عشرة سنة يرحل يرحلهم ويتزل بتزولهم يتعلم كلامهم ويأخذ طبعهم ، وكان الأصمعي يعرف فيه ذلك ، فرحل إليه في الحجاز وتلمذ له والشافعي يومئذ صغير السن ، وعبر عن ذلك بقوله : (صححتُ أشعار هذيل على فتى من قریش يقال له : محمد بن إدريس الشافعي)^(٢٩) .

وديان الهذليين الذي بأيدينا رواه أبو سعيد السكري معتمداً على رواية الأصمعي في الكثير منه (خمسة أجزاء من ثمانية) ، كما كان يعود إلى رأى الأصمعي في كثير مما رواه عن غيره أو

(٢٦) وفيات الأعيان ١ : ٤٤٨ .

(٢٧) الأغاني ٢ : ١٧٤ .

(٢٨) الشعر والشعراء ١ : ٢٩ .

(٢٩) معجم الأدباء ١٧ : ٢٩٩ .

يعقد مقارنة بين الروايات المختلفة ، فيقول مثلاً : (والأصمعي يروى هذا البيت متأخراً عن الذى يليه - أو يحذف هذه الأبيات ، أو لم ترد هذه الأبيات فى رواية الأصمعي) ، ولم يقتصر السكرى على رواية المتن ، وإنما كان يعتمد عليه كذلك فى شرحه للأبيات ، ويشير إلى ذلك فى أماكن متفرقة من الكتاب^(٣٠) ، كما كان يشير إلى أماكن انتهاء رواية الأصمعي فيقول بعد البيت الثالث من قصيدة أبي ذؤيب :

لعمرك والمنايا غالبات لكل بنى أب منها ذنوب
عبارة (هنا كمل الجزء من ديوان الهذليين وهو من رواية أبي سعيد عن الأصمعي)^(٣١)
وبعد أن تنتهى قصائد أبي ذؤيب تبدأ قصائد ساعدة بن جويرية ، وتقرأ بعد البيت الخامس من القطعة الأولى (كمل الجزء الثانى ، ثم يبدأ الجزء الثالث من ديوان الهذليين وهو رواية عن الأصمعي) وعلق السكرى على قصيدة أبي ذؤيب السابعة التى مطلعها :

يا بيت جثماء الذى يتحجب ذهب الشباب وحبا لا يذهب
بقوله : إن الأصمعي لم يعرف هذه القصيدة ، وكأنه يعزز رأى الأصمعي بعدم نسبتها إلى أبي ذؤيب بقوله : إن كلثوم بن خالد ينسبها لرجل من خزاعة ، ويقول : إن الزبير ينسبها لابن أبي دياكل^(٣٢) .

وأبو سعيد السكرى لم يرو عن الأصمعي مباشرة فهو متأخر عنه ، ولكنه عول على رواية آخرين نقلوا عن الأصمعي لم يشر إليهم .

والأخبار المتفرقة تشير إلى أن الأصمعي جمع دواوين المشاهير من الشعراء وبلغ فى روايتها مبلغاً جعل الرواة من بعده يطمثون إلى روايته ، ويشيرون إليها على أنها أمثل المصادر . والأعلم ابن يوسف الشتمرى من رجال القرن الخامس يرفع الأصمعي إلى أعلى مراتب الرواية . فقد جمع أشعار ستة من القدماء فى ديوان واحد وهم : امرؤ القيس ، والنابعة ، وعلقمة . وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، وهو إذ يرى الأصمعي أوثق من روى - بدأ فى كل ديوان بروايته حتى إذا استوفاهها نص على انتهائها وميز آخرها ، وقال : (قد اعتمدت فيما جلبته من هذه

(٣٠) انظر ديوان الهذليين ط دار الكتب ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .

لج .

(٣١) ديوان الهذليين ١ : ٩٢ .

(٣٢) المصدر السابق ١ : ٦٣ .

الأشعار على أصح روايتها ، وأوضح طرقاتها وهي رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها واتفاق الجمهور على تفضيلها .

امتناع الأصمعي عن رواية شعر الهجاء :

لاحظ العلماء امتناع الأصمعي عن رواية شعر الهجاء ، ومع ما رأيناه من صدق الأصمعي في رواية الشعر فإن الأخبار الكثيرة تشير إلى وقوفه عند شعر الهجاء لا يرويه ولا يفسره (٣٣) .

وهو بهذا - إن امتدح لتعففه عن رواية الإفحاش والسب - فقد حرم الأدب العربي ركناً له خطره في مذاكرة الشعر واللغة والنقد والنسب ووجوه المثالب والمناقب ، وبالجمله فإن شعر الهجاء كان يمثل دعامة قوية في التاريخ الأدبي ، وإن ترك الأصمعي له يعد من المآخذ عليه . ومن حق الباحث أن يقف أمام امتناع الأصمعي عن رواية شعر الهجاء ويتساءل عن الداعي الذي فرض عليه هذا المسلك ، وليس هذا الداعي هو عدم حفظه للهجاء وهو الراوية الذي عُدَّ في هذا الميدان أعجوبة من الأعاجيب . وقد كان بلا شك يحفظ من هذا اللون من الشعر مثل حفظه من غيره من الألوان وحمل المسألة على ما عرِف به الأصمعي من الورع أمر صعب ، فقد كان على ورعه يروى من مجون العرب وطرائف نوادرهم ما لا يُقره إيغال في الورع والتزمت ، ولكن الذي نعتقد ونستطيع أن نستنبطه من مقومات شخصية الأصمعي أنه كان من ذلك الطراز من العلماء الذين يحنحون إلى السلم ، ويؤثرون العافية ويتحرون في تعليمهم ألا يرضوا فئة بإغضاب فئة أخرى ، ظهر ذلك جلياً فيما سبق أن أوضحنا ، في موقفه مما كان يثار في عصره من كلام في القدر وفي إضرابه عن الجولان في ميادين التفسير والحديث . كان الرجل يريد أن يكون راوية للشعر واللغة ، وأن يقبل عليه الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وأهوائهم . فلا يكون لبعض نزعاته في الرواية كارهون ينالون منه أو يقطعون عليه ، وكان الرجل إلى جانب ذلك على شيء من الجبن يفرض عليه تجنب المشاكل والمنازعات التي يتعرض لها المتحزبون !

(٣٣) قال أبو حاتم : سمعت الأصمعي يقول : تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة ، وكان يكاره ، وأما جرير فما علمته سرقة إلا نصف بيت . وقال : ولا أدري ولعله وافق شيء شيئاً قلت : وما هو فقال : هجاء ، ولم يخبّرنا به قال أبو حاتم : وقد رأيته بعد في شعره - الموشع ١٠٥ .

بدأ هذا الخوف جلياً في فراره من بغداد بعد نكبة البرامكة ، وفي بقاءه في البصرة لا يعود إلى بغداد حتى الممات برغم احتيال المأمون عليه ومحاولات إرجاعه إليها ، كان مشهد رأس جعفر البرمكي بين يدي هارون الرشيد الغاضب الباطش وقول الخليفة له : (الحق بأهلك يابن قريب) - نذيراً مفزعاً يطارده حيثما كان ويبعده عن أبواب القصر وعن كل ما يذكره بأبهة الأمراء ، كان ركوب الحمير في أزقة البصرة أحسن لديه من براذين الخلفاء .

ومن هذه الصور تردده على باب المسجد الجامع في البصرة وقوله : (انظروا لا يكون هنا) يعنى أبا عبيدة حتى لا يسمع من لسانه ما عرف به أبو عبيدة من الحدة وشدة البادرة . كان يعلم أن شعر الهجاء هو ديوان مثالب العرب ، وأنه لا محالة إن روى منه طرفاً ألب عليه كثيراً من أبناء القبائل المثلوبة ، وكان يعلم أيضاً أن انتماءه إلى باهلة لن يقيه عادية الألسن ، بل قد يكون الأمر بالعكس وأن أباده كان هدفاً لإسحق بن إبراهيم الموصلي عندما نشب بينهما الخلاف وأن الألسن لا سلطان عليها وقد تصيب بالاختلاق والافتراء إذا أعوزتها الوقائع الفاضحة المزرية فإسحق مثلاً ينال من أبيه في قصة ذكرناها ، وإن كان لدينا الكثير لنعلق به على ذلك الخبر وجنوح إسحق فيه إلى التزبد والكذب .

ونستطيع أن نقرر أن عزوف الأصمعي عن رواية شعر الهجاء ، كان كما قلنا عزوفاً عن الاستهداف للمشاكل أو الوقوع في طريق الغضب من بعض الناس ، وهو شيء لم يكن للرجل به قوة ولا لديه فيه رغبة ، بل كان كما قلنا يجب أن يؤخذ علمه عنه دون أن يجر عليه هذا العلم العداوة والبغضاء .

ولقد تبين لنا عندما تكلمنا عن الأصمعي الناقد أنه أتقن فن الرواية في أقوى وأكمل صورته ، فلم يكن ناقلاً لما قالت العرب فحسب ، وإنما كان مُتَذَوِّقاً لما يروى بصيراً يجيده ، شديد الإحساس بخصائص أساليب كل شاعر ، متمثلاً لمن يروى لهم من الشعراء على حسب مراتبهم في الفحولة والأخذ بناصية الشعر ، ولهذا نعد وقوف الأصمعي عن رواية شعر الهجاء خسارة وحرماناً .

منهج الأصمعي في الرواية :

نسأل الآن عن مدى أمانة الأصمعي ودقته في الرواية : هل كان يحكم ذوقه أحياناً ويصل بهذا الذوق الفني إلى تغيير النص ؟ هل كان يستجيب لزعته الفنية أو كان أميناً على

النص كما تقتضيه أصول الرواية ، جاريًا على نهج المُحدثين في هذا .
 إن ما قرأناه للآن عن الأصمعي يشير إلى أنه كان ذَوَاقًا للشعر عارفاً بأصوله وبكثير من
 نزعات الشعراء وميولهم وطرق الأداء عندهم ، ولم تكن تعوزه الحيلة لو أراد النظر في تغيير
 رواية البيت عن أصله والخروج به عن النص الذي أراده صاحبه ، ولكن الأصمعي لم يلجأ
 إلى ذلك : كان يشير إلى أماكن يستضعفها ويقول : لو كان هذا مكان هذا كان أصلح ؛ كما
 في قوله (فكفيه إن كان لابد أصلح) معترضاً على الرامي الذي يخرج زنديه من ستره في قول
 امرئ القيس وهو ينوح على أبيه :

رب رام من بنى ثعل مخرج زنديه من ستره
 أو حينما يقول : كيف تحمل الخمرة إلى ثقيف وعندهم العنب وحينما اعترض على وصف
 الخمرة بالحضرة حين قال عدى بن زيد :

والمشرف الهندي نسق به أخضر مطموثا بماء الخريص^(٣٤)
 قال : ولم يعلم أحد وصفها بذلك :

وكان يعيب على عدى وصفه للفرس بأنه (فاره) فقال : لا يقال للفرس فاره ، وإنما
 يقال له : جواد ، وعتيق ، ويقال للكوند والبغل والحمار فاره^(٣٥) .
 وهو لا يستريح حين يسمع أبا النجم العجلي يصف راعي الإبل بصلابة العصا حين
 يقول :

صلب العصا جاف عن التغزل

فيقول : لا يوصف راعي الإبل بصلابة العصا ، والحيد قول الراعي :
 ضعيف العصا بادی العروق ترى له عليها إذا ما أحمل الناس إصبعاً
 والأصمعي أعلم بالمسميات ، وأقدر على تمييز الصحيح منها وأعرف بمكانه الملائم في
 الشعر ، سمع أبا النجم يقول :

(٣٤) الشعر والشعراء ١٨٢ دار إحياء الكتب العربية .

المطموث : المزوج - الخريص : جنود ينبثق فيه الماء من الهر ويعود إليه .

(٣٥) الشعر والشعراء ١٨٢ .

وهى على عذب روى المنهل
دحل أنى المرقال خير الأدحل
من تحت عاد فى الزمان الأول

فقال : الدحل لا تورده الإبل إنما تورد الركابا (جمع ركية وهى البئر) ، ثم عاب عليه أيضاً قوله : من تحت عاد ، قال الأصمعى : والدحلان لا تحفر ولا تنحت إنما هى خروق وشعاب فى الأرض والجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه ، وهى هوة فى الأرض يضيق فيها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء (٣٧) .

ولا تقف ملاحظ الأصمعى الدقيقة عند المسميات وما اعتاده العرب فى حياتهم ، وإنما يتجاوز هذا إلى الصور الحسية التى يتمثلها عند سماع البيت ، فيقارن بين ما سمع وبين ما تخيل ، فيشير إلى الوضع الأحسن : يقول المزار العبدى فى صفة النخل :

كان فروعها فى كل ربح عذارى بالذوائب ينتصينا
أى أن فروعها تتقارب وتتجاذب كأنهن ذوائب عذارى تشابكت من القرب . قال الأصمعى : لم يكن له علم بالنخل ، وإذا تباعد النخل كان أجود له وأصلح لثمره (٣٨) . لم تكن الحيلة تعوز الأصمعى لو أراد أن يغير من رواية البيت أو يصلح بعض ألفاظه ، ولكنه لم يسلك هذا المسلك ، وكل ما عمله أنه كان يشير إلى مكان الضعف فى البيت ، ويقترح له لفظاً أصح منه . ولكننا نجد نصاً يشذ فيه الأصمعى عن هذا الأصل وصرح بذلك فقال : قرأت على أبى محرز خلف بن حيان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :

ويوم كإيهام القطة محب إلى صباه غالب لى باطله
رزقنا به الصيد الغزير ولم يكن كمن نبله محرومة وحبائله
فيالك يوماً خيرة قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله
فقال خلف : ويحه ! فما ينفعه خير يؤول إلى شر فقلت له هكذا قرأته على أبى عمرو ،

فقال لى : وكذا قال جرير ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع فقلت : فكيف كان يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يقول : خبره دون شره ، فاروه كذلك ، فقد كانت الرواة قديماً

(٣٦) الشعر والشعراء ٥٩١ .

(٣٧) الأغاني ١٠ : ١٦١ .

(٣٨) الشعر والشعراء ١٨٠ .

تصلح أشعار الأوائل^(٣٩) ، فاقنتع الأصمعي بحجة صاحبه وقال : والله لا أرويه بعدها إلا كذا .

ولا نميل إلى التسليم بالخبر فيما أشار إليه من اقتناع الأصمعي بحجة صاحبه . وموافقته على تغيير الرواية بهذه السهولة إلا إذا كانت هناك اعتبارات أخرى حملت الأصمعي على مخالفة منهاجه : فهل كان الأصمعي في باكورة أيامه ولم يصل إلى وضع المعايير التي رأيناها في أخريات أيامه فساهل نفسه ، وأخذ برأى خلف ، ليس هذا ببعيد .

كان خلف ممن يغيرون الرواية ، وينحلون الشعر ، فهل تأسّى به الأصمعي ، أو أنه سمع عن أبي عمرو بن العلاء وقد زاد بيتاً واحداً نسبته إلى النابغة كما سذكروه بعد - فقلد أستاذه . على كل حال . نحن أمام هذا الخبر نقف على ظاهرة من أخطر مظاهر الرواية نستطيع منها أن نؤرخ لتطور هام طرأ على منهاجها في هذه المدرسة التي كان أساطينها أبو عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر ، والأصمعي :

فخلف الأحمر نقل استعمال (قبل) في البيت واستحسن بدلها كلمة (دون) ، ولكنه أقر أبا عمرو على أن الرواية الصحيحة إنما هي بكلمة (قبل) ، واقترح أن تغير الكلمة الشاذة ، وتوضع بدلها الكلمة المناسبة لا تحكماً منه ، ولا جنوحاً إلى ارتكاب جريمة الانتحال ، وإنما استناداً إلى تقليد قديم يطالنا به في كل ضخامته وخطورته ، وهو أن الأقدمين من الرواة - وهو بلا شك - يقصد أولئك الرواة الذين كان كل واحد منهم يلزم شاعراً بعينه فيأخذ عنه ويحفظ له - كانوا إذا لزم الأمر يصححون في أشعار شعرائهم ، أو ينسئ كلمة فيعمد إلى الإتيان بكلمة أخرى تتفق مع غرض البيت ووزنه ، وكان الواحد منهم يعتبر ما تلقى من شعر شاعره ميراثاً قد ورثه هو عنه يستطيع أن يتصرف فيه على النحو الذي يبدو له أنه الأمثل ولم يكن الواحد منهم يشعر في ذلك حرج الكذب ولا تهمة الوضع ولا جناية التحريف حتى إذا جاء عصر هؤلاء الرواة العلماء وجدنا التردد الذي تراه في هذا الخبر بين الاستمرار في التقليد القديم أو لزوم المنهج الجديد : منهج الرواية العلمية المبني على الثبوت في السند والمتن جميعاً . وترى الرجلين هنا - الأصمعي وخلفاً الأحمر يُقرّان النهج العلمي ، ويجعلان من التغيير الذي اقترحه خلف نكتة نقدية بحيث لا يذكر الشعر إلا ذكر معه هذه النكتة مما يرتفع به كل لبس ، ويثبت فيه النص الأصلي إلى جانب التصحيح ، ولو أن الأصمعي كان قد أخذ بالنهج القديم من التصحيح والتقويم في كل ما يروى ما حدثنا بذلك في هذا الخبر بالذات ، ولكان

أيضا قد غير حيناً أنشد البيت الذي انتهت فيه الحمرة إلى ثقيف ، وأبيات أبي النجم الذي تشابكت فيه أغصان النخيل من القرب ، وبيت عدى بن زيد الذي وصف فيه الحمرة بالخمرة إلى غير ذلك بحيث يستقيم ما بدا له معوجاً .

ومما يؤكد جنوح المدرسة القديمة إلى التغيير في رواية الشعر ما يرويه محمد بن سلام الجحى قال : سألت يونس عن بيت روه للزبرقان بن بدر وهو :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتبقى مريض المستنفر الحامى
قال : هو للنابعة ، أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعه لا محتلباً له ، وقد فعل ذلك العرب لا يريدون به السرقة^(٤٠) . والتمثل بالبيت إذا جاءت مناسبة دون الإشارة إلى ذلك يمكن أن يوضع في تقدير مماثل مع التصحيح والتغيير والانتحال .

وقد تكون هذه الظاهرة مقبولة إذا استهدفت تقريب الشعر أو إذا جاءت مناسبة كما في البيت السابق ، وكما فعل أبو عمرو بن العلاء وقد زاد بيتاً واحداً في شعر النابعة وهو :
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا^(٤١)
على شرط أن تذكر هذه الملابس إلى جانب الرواية الأولى . ولقد أحس أبو عمرو أن في عمله هذا نوعاً من التريد يأباه ورعه ونسكه فصرح به .

أما أولئك الذين سمحوا لأنفسهم بتصحيح الرواية وتجاوزوا ذلك إلى انتحال الشعر فقد وصمهم التاريخ بعملهم هذا ، ولم يفدهم بعد ذلك نسكهم ورجوعهم عن مسلكهم ، وبقيت الأخبار تكشف وتروى من أخبارهم عجباً :

روى أن أعرابياً جاء إلى حماد فأنشده قصيدة أعجب بها حماد ولم يعرفها ، فلما قام الأعرابي قال لتلاميذه لمن ترون أن يجعلها ؟ ، فقالوا : أقوالاً ؛ فقال حماد : اجعلوها لطرفة !^(٤٢) .
وقدم حماد على بلال بن أبي بردة وعنده ذو الرمة فأنشده شعراً مدحه به ، فقال بلال لذي الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ فقال : جيداً وليس له قال : فن يقوله ؟ قال : لا أدرى ، إلا أنه لم يقله .

فلما قضى بلال حوائج حماد قال له : أن لي إليك حاجة ؛ قال : هي مقضية ؛ قال :

(٤٠) طبقات فحول الشعراء ٤٨ ، المزهر ١ : ١٨٣ .

(٤١) المزهر ١ : ٢٦٠ ط السعادة .

(٤٢) المزهر ٢ : ٣٥٣ ط السعادة ، الأغاني ١ : ٦٣ .

أنت قلت ذلك الشعر؟ قال : لا ، قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيري ؛ قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام^(٤٣) ولمسلكه هذا كان المفضل الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أنخطئ في رواية أم يلحن ؟ قال : لئنه كان كذلك ؛ فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عن عالم ناقد وأين ذلك^(٤٤) .

وكذلك كان خلف الأحمر البصري : فقد بلغ من حذقه واقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء حتى يشبه بذلك على جلة الرواة ، ولا يفرقوا بينه وبين الشعر القديم . من ذلك قصيدته التي نخلها ابن أخت تأبط شرا التي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل
فإنها جازت على جميع الرواة فما فطن بها إلا بعد دهر طويل بقوله :
خبر ما نا بنا مصمئل جلّ حتى دقّ فيه الأجل
فقال بعضهم : (جل حتى دق فيه الأجل) من كلام المولدين ، فحيث أقر بها خلف^(٤٥) .

وبلغ الأمر بخلف - وهو كما نعلم أستاذ الأصمعي - أنه كان يلقين طلابه أصول التصرف في الشعر على هذا النهج : خرج يوماً على أصحابه فأنشدهم قول النمر بن تولب :
ألم يصحبنى وهم هجود خيال طارق من أم حصن
وقال : لو كان مكان (أم حصن) (أم حفص) كيف يكون قوله :
لها ما تشهى غسل مصفى وإن شئت فحوارى بسمن
فقالوا : لا ندري ! فقال :

وإن شئت فحوارى بلمص

(٤٣) الأغاني ٦ : ٨٨ .

(٤٤) معجم الأدباء ١٠ : ٢٦٥ .

(٤٥) إنباه الرواة ١ : ٣٤٨ - ٣٤٩ .

واللمص : الفالوذج^(٤٦) .

ونستطيع أن نؤكد أن الأصمعي لم يسلك سلوك خلف الأحمر واصطناعه الشعر ينسبه إلى من يشاء ، ولا تغيير الرواية على الوجه الذي يستحسنه ؛ ولا مسلك حماد الذي كان يأمر صبياته بأن يجعلوا هذه القصيدة أو تلك لهذا الشاعر أو ذاك وفيما عدا هذا البيت الواحد الذي تابع فيه خلفاً وقال : لا أرويه إلا كذلك - لم نجد للأصمعي خبراً أو شهرة في هذا اللون من التغيير أو الافتعال .